الشاعر الشهيد الربيع بوشامة

د. محمد ابن سمينة

جامعة بن يوسف بن خدة

- الجزائر -

مدخل : لقد ظل الشعب الجزائري يواصل جهاده ضد الغزاة الفرنسيين طوال فترة الاحتلال، يفجر الثورة تلو الثورة، حتى كانت ثورته الكبرى ليلة الفاتح من نوفمبر 1954 التي سخا فيها بالأرواح الطاهرة والدماء الزكية ، فكانت التضحيات جسيمة ، وكانت قائمة الشهداء طويلة يفوق تعدادها المليون ونصف المليون من الشهداء الأبرار رحمهم اللّه . كان من بينهم كثيرون من شهداء الكلمة ، وكان من بين هؤلاء : الشاعر الشهيد الربيع بوشامة الذي كان أحد أبناء الجزائر الذين أخذوا مواقعهم في الطليعة من مسيرة أمتهم ، ومضوا يجودون بحياتهم : من أجل حياتها حتى سقط شهيدا على أرضها فداء لحريتها وعزتها وأصالتها وسيادتها، فمن هو هذا الابن البار ؟ وماذا عن جهاده واستشهاده ؟

ويمكن أن يتركز النقاش للإجابة عن ذلك في المحاور الآتية :

أولا - النشأة والتكوين : ولد الربيع بن الصديق بوشامة، ببلدة (قنزات) بمنطقة (بني يعلى) ولاية (سطيف) بالشرق الجزائري.

استهل تعلمه في (الكتاب) بحفظ القرآن الكريم فختمه حفظًا في الثانية عشرة من عُمره على يد شيخه الصديق بن عبد السلام، وكان في الوقت ذاته يتعلم في المدرسة الفرنسية، فأكمل بها تعلمه الابتدائي، ثم اختلف إلى مجالس علماء المنطقة فأخذ عنهم، وكان من بينهم : الشيخ السعيد صالحي، والشيخ العياشي مزغيش، والشيخ الهاشمي بالمولود وغيرهم، كما التحق من بعد،

بدروس الإمام عبد الحميد بن باديس بالجامع الأخضر بمدينة قسنطينة ، إلا أن الوقت لم يطل به في هذه المجالس لوفاة الإمام -رحمه الله - سنة 1940، فرجع حينئذ إلى بلدته. وكانت منطقة (بني يعلى) في هذه الفترة من بين أهم المناطق في الجزائر التي أصبحت تتوفر على بيئة صالحة ومناخ مُلائم لانتشار الفكرة الإصلاحية، وكانت بذور هذه الفكرة قد بدأت تأخذ طريقها إلى صدر الشاب الربيع منذ أيام طلبه العلم في مجالس شيوخه الأوائل، وقد ازدادت هذه الفكرة في قلبه وفي عقله تمكنا بعد التحاقه بدروس الإمام ابن باديس وتوطيد صلته المباشرة به وبأفكاره.

1 - دخوله معترك الحياة الوطنية :دخل الشاب الربيع وهو في ربيع عُمره مُعترك الحياة الوطنية من بوابة الحركة الإصلاحية، مُنطلقاً مما انطلقت منه هذه الحركة في مشروعها الوطني الحضاري عن طريق الإرشاد والتوجيه، والتربية والتعليم، والتثقيف والتكوين فعكف على إلقاء الدروس بمسجد القرية، وأسس ناديًا ثقافيًا فتح أبوابه للشباب ، وكان يلتقي فيه بهم في جلسات توعية وتكوين.

وفى سنة 1937أصبح عُضوًا عاملاً في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، رائدة النهضة وقائدة الحركة الوطنية الحضارية .

وفي سنة 1938 أوفدته هذه الجمعية رفقة شيخه السعيد صالحي إلى فرنسا للمشاركة فيما تقوم به بعثة هذه الجمعية هنالك من

نشاط وطني : تربوي وتوجيهي في أوساط المغتربين، ولكنه لم يمكث في هذه المهمة إلا حوالي سنة واحدة رجع بعدها إلى بلدته (قنزات) ليُواصل نشاطه الإصلاحي التربوي بها. بيد أن سُلطات الاحتلال لم تُمهله ليصل إلى أهدافه في هذه المهمة، فمضت ترصد حركاته وتتبع خُطواته، مما اضطره إلى تغيير مواقع جهاده، فانتقل إلى مدينة (خراطة) إحدى مدن المنطقة، وأصبح مُعَلمًا بمدرستها، إلا أنه وجد بها العدو الذي كان يُلاحقه في قريته بالأمس ينتظره هناك في موقعه الجديد بأقسى وأشد مما كانت عليه مُضايقته له من قبل.

2 - مشاركته في حوادث (الثامن ماي 1945) :كانت الجزائر قد شهدت في هذه الآونة ما يُعرف في تاريخ نضالها في العصر الحديث بحوادث الثامن ماي التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية، وتمثلت تلك الحوادث في خروج الجزائريين في مظاهرات سلمية، مُطالبين باسترجاع حُقوقهم المغتصبة، وكان الحلفاء قد وعدوا قبل هذه الحرب وأثناءها الشعوب المضطهدة بذلك، إلا أن المُعتدين لا يعرفون للوفاء عهدًا، فتنكروا لوُعودهم وقاموا بإخماد تلك الانتفاضة الشعبية بالحديد والنار، أحرقوا القُرى، ودمّروا الديار، وأزهقوا الأرواح، وبلغ عدد الشهداء من الجزائريين يومئذ حوالي خمس وأربعين ألف شهيد رحمهم الله

وكانت أحداث هذه الواقعة قد تركزت بخاصة في ثلاث

مُدن هي: (قالمة) و(سطيف) و (خراطة). وفي هذه المدينة الأخيرة كان يقيم الشاعر، فأصابه من ذلك بلاء عظيم، فقد ألقت سلطات الاحتلال القبض عليه بتُهمة المشاركة في هذه الانتفاضة والتحريض على الثورة ضد المحتلين، فقُدِّم للمحاكمة، فحُكم عليه بالإعدام . ثم استأنفت المحكمة حكمها فبَرأت ذِمته فخرج من السجن سنة 1946. فتوجه إلى العاصمة وأصبح مُعلما بها في مدرسة (جمعية الهُدى) بحي (العناصر). وفي سنة 1948 أسندت له جمعية العلماء الإشراف على مدرسة (الثبات) بحي (الحراش) بالعاصمة.

كان طوال نهوضه برسالته التربوية يجمع في ذلك بينها وبين إسهاماته الوطنية فكان يقوم بإعطاء دروس نظامية للتلاميذ في المدارس، ويُواظب في الوقت ذاته على إلقاء دروس عامة في الوعظ والإرشاد في المساجد.

وفي سنة 1952 قامت جمعية العلماء بإيفاده ثانية إلى فرنسا ليُصبح رئيسًا مُعتمدًا لشعبتها المركزية بباريس، فنهض بهذه المهمة على أحسن وجه، بقيامه بتوسيع نشاط الجمعية بين المغتربين، ونشره بينهم دعوتها ومبادئها وتعريفهم بأهدافها، فعرف بذلك عدد المنخرطين في الجمعية زيادة مُطردة، كما حرص من جهة أخرى على توطيد الصلة بين المنضوين تحت لواء الجمعية، وبين إخوانهم العرب والمسلمين المقيمين بفرنسا، فكان لهذه الجهود الأثر الطيّب

في جمع الكلمة وتوحيد الصف والإسهام في إعطاء شيء من الفاعلية اللازمة للعمل الإسلامي في بلاد الغرب.

إلا أن الشاعر لم يلبث في هذه المهمة -لأسباب غير واضحة - لأكثر من سنة عاد بعدها إلى الجزائر، ليُواصل مرة أخرى رسالته التربوية والإصلاحية في أرض الوطن على رأس إدارة مدرسته السابقة (الثبات) بحي (الحراش) بالجزائر العاصمة.

3 – استجابته لنداء الثورة : استمر الشاعر ينهض بهذه الرسالة التربوية إلى أن اندلعت الثورة المباركة في الفاتح من نوفمبر 1954 فانضوى تحت لوائها ومضى يدعو الشعب إلى الالتفاف حولها، يُجنّدُ الشباب، يجمع الأموال، يُوَّثق صلاته بجيش التحرير الوطني، يُواكب بشعره مسيرة الثورة، تصويرًا لملاحمها، وتخليدًا لمآثرها إلى أن سقط شهيدًا - رحمه الله - في ميدانها (يوم13مايو1959) .

ترجع صلة الشاعر بالثورة إلى أيَّامها الأولى، وذلك عن طريق صديقه القائد الشهيد (عميروش) –رحمه الله - الذي كانت تربطه به صلة النضال في صفوف جمعية العلماء أيّام كان الربيع في فرنسا في الخمسينات يرأس شعبتها المركزية، وكان عميروش يرأس شُعبتها بباريس (القسم 15)، ثم أصبح بعد اندلاع الثورة أحد قادتها البارزين في الميدان العسكري (قائد الولاية الثالثة).

واستمر الشاعر في نضاله بصفوف الثورة متنقِلاً ما بين الجزائر العاصمة ومدينة (سطيف) وغيرها شرقًا، إلى أن ألقى

المحتلون القبض عليه يوم 16 جانفي 1959، وهو في مكتبه بإدارة المدرسة واقتادوه إلى السجن، وظل به طوال خمسة شهور، يلقى من ألوان التعذيب وصُنوف التنكيل ما يلقى، حتى سقط شهيدا – رحمه الله - تحت سياط التعذيب على أيدي الجلادين يوم (13 مايو 1959)، فكان الأديب الشهيد الربيع واحدًا من بين كثير من شهداء الكلمة في الجزائر.

ثانيا - نهوضه بالرسالة الشعرية النضالية

لقد كان الشهيد الربيع بوشامة - إلى جانب كونه مصلحا ومربيا – شاعرا وطنيا ، وقد تضافرت عدّة عوامل : الموهبة، والثقافة ،ومؤثرات البيئة، وملابسات الواقع ، وغيرها، على طبع الشخصية الأدبية للشهيد الشاعر بطوابع الأصالة والصّدق والإخلاص والوطنية، مما ساعده على الاندماج في واقع أمته، والالتزام بالذّود عن قيمها ومقوّماتها، والدّفاع عن قضاياها وتطلعاتها ، فجمع لذلك في اهتماماته الشعرية ما بين التمكين للفكرة الإصلاحية وتصوير مشكلات المجتمع، وبين الدعوة إلى التحرر الوطني، ومواكبة مسيرة الثورة وتخليد مآثرها، والحض على الالتفاف حولها. والتعاطف مع قضايا وطنه الكبير (الأمة العربة الإسلامية).

1 - **التزامه بالرسالة الشعرية الواقعية النضالية :** كان التزام الشاعر عميقًا بهذه الرّسالة الأدبية الواقعية النِّضالية، فكان لذلك

متعدّد الإسهامات بالكلمة المناضلة في كل هذه الميادين: مصلحا ومربيا وكاتبا وخطيبًا وشاعرًا.

إلاّ أنّ موهبته الشعرية كانت عنده أوضح من غيرها من الميول الأدبية الأخرى.

ونحسب أن ليس من اليسير تحديد الفترة الزمنية التي يكون الشاعر قد بدأ فيها تعاطيه قرض الشعر، وذلك للظروف التاريخية التي مرت بها بلاده تحت حكم الاحتلال الاستيطاني الفرنسي، بيد أنّ ما يمكن تقريره في هذا الصدد أنّ أقدم ما وصلنا من شعره: قصيدته (يا شهابًا قد تجلى) التي يؤرخ لها مقدم الديوان بشهر جانفي 1947. (ديوانه ص:249). وأن آخر ما وصلنا من شعره : قصيدته (شجون) المؤرخة في الديوان بشهر جانفي 1958، وإذن فإن ما وصلنا من شعره يغطي المساحة الزمانية (1947 - 1958) ويمكن أن تعود البداية الحقيقية لهذا النتاج إلى وقت متقدم عن هذا التاريخ، أي إلى أوائل الأربعينات ، ولكن هذه الفترة الممتدة ما بين (1939 - 1947) من تاريخ الجزائر قد عرفت الحركة الأدبية والثقافية عموما فيها شيئا من الركود والخمود لعوامل موضوعية، مثل انعدام وسائل النشر، وتوقف الصحف الوطنية عن الصدور بسبب الظروف الاستثنائية والإجراءات التعسفية التي عرفتها الجزائر وغيرها من الشعوب المضطهدة أثناء فترة هذه الحرب، ولم تعد هذه الصحف إلى الصدور إلا بعد أن وضعت

الحرب أوزارها ، فعادت صحيفة (البصائر) حينئذ من جديد إلى الظهور(جولييت 1947). واستأنفت على إثر ذلك الحركة الأدبية نشاطها .

ونستخلص مما تقدم أن يكون الشاعر قد نظم شعرا في فترة هذه الحرب ولكنه لم ينشره كمعظم الأدباء الجزائريين للأسباب الآنفة الذكر ، فضاع ذلك النتاج ، ومما يؤكد هذا الاستنتاج أن معظم دواوين الجزائريين ومؤلفاتهم الأخرى لا يكاد يعثر فيها الباحث على نتاج يعود إلى هذه الفترة .

ومهما يكن من أمر ذلك ، فإن نتاج الشاعر يمكن أن يتوزع على مرحلتين اثنتين من مراحل الشعر الجزائري الحديث :

أولاهما - (مرحلة الإعداد للثورة) (ما بين 1939 - 1954).

وثانيتهما – (مرحلة مواكبة الثورة) (1954 - 1962) .

ويمكن أن يكون الشاعر بالنظر إلى ما يميز شعره من الخصائص الموضوعية والفنية واحدا من شعراء الرّعيل الثاني من جيل النهضة في الجزائر.

وتحسن الإشارة إلى أن شعرا ء النهضة في الجزائر يتوزعون إلى رعيلين :

الرعيل الأول: ويمثله الشعراء الرواد من أمثال: محمد الهادي السنوسي، محمد السعيد الزاهري، محمد العيد آل خليفة، مفدي زكرياء، وأندادهم (ابتداء من العشرينات من القرن العشرين)

الرعيل الثاني : ويمثله جيل منتصف الثلاثينات، من أمثال: محمد الصالح رمضان، محمد الشبوكي، أحمد بن ذياب، محمد الأخضر السائحي، أبو بكر بن رحمون، الربيع بوشامة وغيرهم .
ويأتي من بعد هؤلاء شعراء جيل الخمسينات ، من أمثال : أبو القاسم سعد الله ، عبد الله شريط ، صالح الخرفي ، أحمد شقار ، وغيرهم .

2 - **ديوان الشاعر:** جمع نتاج الشاعر وقدم له : الدكتور جمال قنان ، وهو أستاذ التاريخ بجامعة بن يوسف بن خدة - الجزائر – يتكون محتوى هذا الديوان من قسمين :

1 - تقديم بقلم جامعه - 2 - النصوص الشعرية من نتاج صاحبه، ويخلو هذان القسمان من (البسملة) (منشورات المتحف الوطني للمجاهد) الجزائر 1994 .

أ – **التقديم :** عني جامع الديوان في هذا التقديم بتفصيل القول في حياة الشاعر من الولادة إلى الشهادة : زمانا ومكانا ، تعلمه ، دخوله معترك الحياة العملية، جهوده وجهاده في مختلف وجوه الحياة الوطنية : مصلحا ومربيا ،خطيبا وشاعرا ، مجاهدا وشهيدا.
وقد استطاع الشاعر المناضل من خلال اضطلاعه بهذه المهام المتعددة أن يكون عنصرا فاعلا في حركة الكفاح الوطني منذ منتصف الثلاثينات ، وعلى أكثر من صعيد ، وإلى أن فجر الشعب الجزائري ثورته الكبرى في الفاتح من نوفمبر 1954 . فكان

الشاعر حينئذ من أول المستجيبين لندائها ، المنضوين تـحت لوائها وظل في صفوفها مجاهدا يرفدها بالمدد المعنوي من خلال توعية أفراد الشعب بضرورة مساندتها والوقوف إلى جانبها ، وعن طريق التصدي إلى مصالح دعاية العدو ضدها، والقيام بتفنيد أباطـيلها ويمدها بالعون المادي بقيامه بتشجيع الشباب على التجنيد في صفوفها وبواسطة ما يجمع من أموال لصالحها ، وظل الشاعر المجاهد في هذه الجبهات ينهض بهذا الواجب الوطني ،لم يثنه عن القيام به ما يتفنن فيه عساكر جيش فرنسا من أساليب القمع والإرهاب ضد الأبرياء العزل من الأهالي، وما يتنافسون في القيام به من عمليات التشريد والتقتيل والإبادة ضد عموم الشعب الجزائري ، وظل الشاعر على هذا الطريق إلى أن سقط - رحمه اللّه - شهيدا على ثرى وطنه الذي أحبه وضحى بروحه فداء لحريته ، راضيا مرضيا فرحا مستبشرا :

آه ما أحلى الشهادات لدى مؤمن باللّه ميمون الحـرك [1]

ثالثا - ديوان الشاعر : الخطة والمحتوى

تقوم خطة هذا الديوان بتوزيع نتاج الشاعر على جملة من المحاور مرتبة على النحو التالي :

1 – مختارات الشاعر - 2 – الشعر الوطني والقومي

3 – الإصلاح والتربية والتعليم.4 – اعتراف وتقدير - 5 – من وحي العاطفة - 6 – الطبيعة بين الجمال والقسـوة -7– مـعاناة

ذاتية - 8 - اجتماعيات - 9 – الأناشيد_10– شعر الثورة -11– متفرقات .

إن المتأمل في هيكل هذه الخطة وفي محتواها تصادفه هذه الأسئلة التالية :

ما هو المنهج الذي اعتمده جامع الديوان في توزيع أعمال الشاعر وتبويبها ؟ فهل اعتمد في ذلك : المنهج الموضوعي ؟ أو الفني ؟ أو التاريخي ؟ أو جميعها كلها في وقت واحد ؟

إن جامع الديوان قام بتصدير هذه الخطة بمجموعة من مختارات الشاعر ، وهي القصائد الأربع التالية : (وحي الذكرى، خواطر وأنات، عرضت لي، حياة راع مغمور)

وكان الشاعر قد بيضها في كراسة، وقدم لها بهذه الكلمات : هذه مجموعة شعرية من نظم الربيع بن الصديق بوشامة، أتقدم بها كأعز أثر وألطف تحفة إلى أبناء العروبة والإسلام عامة، وحماة الجزائر خاصة.[2]

ويكون الدكتور قنان جامع الديوان، بقيامه بهذه المبادرة، قد احترم إرادة الشاعر فيما جمعه ورتبه من شعره ، ثم اجتهد بعد ذلك في توزيع بقية قصائده على النحو المتقدم في الخطة الآنفة الذكر وقد بناها على المزاوجة بين المنهجين : الموضوعي والتاريخي .

فجعل في ضوء المنهج الموضوعي القصائد ذات الموضوعات الواحدة أو المتقاربة التي تعود إلى مرحلة ما قبل الثورة في محور واحد .

وحرص من جانب منظور المنهج التاريخي أن تكون قصائد كل محور من هذه المحاور مرتبة حسب التسلسل الزمني ، ويقول الدكتور قنان في هذا المضمار" ولقد حاولنا في داخل هذه العناوين العامة ترتيب القصائد حسب تسلسل زمني بدءا بقديمها إلى آخرها".[3]

ولكنه لم يستطع أن يلتزم بالمنهج التاريخي في قصائد الشاعر التي ترجع إلى مرحلة الثورة لأن معظم تلك الأعمال تعالج موضوعات متقاربة من نحو، وهي من نحو ثان غير منشورة. ومن ثم كان من الصعب تحديد تاريخها ، مما جعل جامع الديوان يعرض هذه القصائد تباعا من دون تسلسل زمني .

ومهما يكن من ذلك فإن الدكتور قنان قد بذل ما أمكنه من الجهد في عملية إخراج هذا الديوان بجمعه نتاج الشاعر في مرحلة أولى ، ثم قيامه في مرحلة ثانية بتحقيق هذا النتاج وتنظيمه وتبويبه ونشره .

وقد تكون هذه الصورة التي ظهر عليها هذا العمل قد لحقها - خطة ومنهجا وأسلوبا – شيء من الاختلال وشيء من التفكك في هيكلها العام وفي صورتها التعبيرية ، بيد أن ذلك لا يمكن أن يسلم منه عمل من قبيله للملابسات التاريخية والظروف الموضوعية التي اكتنفت حياة الشاعر وحياة شعره وحياة شعبه . ويمكن أن لا يقدر صعوبة هذه العملية التي قام بها جامع الديوان حق قدرها إلا

من يكون قد كابد ما كابده صاحبها من أعباء وما اعترض طريقه - وهو ينهض بها - من عراقيل ، ويعود ذلك أو بعضه إلى أن نتاج الشاعر كان منشورا في بعض الصحف الوطنية تأتي على رأسها جريدة (البصائر) ، وقد عرفت هذه الصحف وعرف أصحابها أيام صدورها ما عرفوا من عمليات المتابعة والتغريم والمصادرة ، ثم أصابها ما أصابها أثناء الثورة من حرق وإتلاف وغربة وضياع على أيدي سلطات **(دعاة حرية الرأي والتعبير وحماة الحقوق الإنسانية..!)** وهاهي ذي هذه الدوريات تعيش اليوم ما تعيش من غياب واغتراب في بعض مكتباتنا حيث يجثم على صدرها ويقيد حركتها غير قليل من بخل بعضنا بها على الباحثين ، وغير قليل من حرمان هؤلاء من الاطلاع عليها والإفادة من كنوزها .

وقد تضافرت هذه العوامل مجتمعة لتنال ليس من صورة ديوان الشاعر الذي بين أيدينا فحسب، وإنما لتشمل هذه الظاهرة غيره مما جمع من تراث أعلام أمتنا، ومما زاد في ضبابية صورة هذا الديوان ما تخللها من أخطاء لغوية وعروضية وتصحيف مطبعي مما ساعد على تفويت الفرصة على المتلقي للوصول إلى التصور الصحيح والفهم السليم لبعض معاني الشاعر، وبعض ما يرمي إليه من خلالها من مقاصد . وإذا ما رام المرء تعليلا لذلك ، فإنه يمكنه أن يرجع بعضه – بالإضافة إلى ما سبق ذكره – إلينا نحن، إلى قلة

عنايتنا - أفرادا ومجتمعا – بتراث أمتنا وزهدنا فيه، وانبهارنا في الوقت ذاته بثقافة غيرنا وتهافتنا عليها وارتمائنا في أحضانها .

وكان الواجب الوطني يقتضي أن تكون عناية جميعنا - أفرادا باحثين، وجهات وصية وهيئات إدارية، ومؤسسات ثقافية وإعلامية - بتراث أمتنا أولى، واهتمامنا به أعظم ، وحرصنا عليه أشد ، لإخراجه في حلة أبهى، وصورة أجمل، وأدق وأكمل .

ومهما يكن من أمر ذلك، فحسب الدكتور قنان جامع هذا الديوان أولا : وفاؤه لصاحبه بتنفيذه وصيته له بجمع نتاجه ونشره وحسبه ثانيا : اجتهاده فيما اجتهد فيه بتحقيقه وإخراجه" **لقد أوصاني وأنا لازلت طفلا على نشر ديوانه ، إن لم تسعفه هو الظروف القيام بذلك**" [4].

وحسبه ثالثا : أن ما قام به بنشره هذا العمل، إنما يدخل فيما يفرضه عليه وعلى أمثاله واجب الحب والانتماء، والإخلاص والوفاء لأمته ، والنهوض بخدمة تراثها والاعتزاز به والمحافظة عليه .

ويلقانا بعد، هذا السؤال : ما هي المضامين الغالبة على اهتمام الشاعر في هذا الديوان ؟ يمكن القول أن أبرز ما يساعدنا في الإجابة على هذا السؤال أن نتذكر ما سبق الوقوف عنده في الحديث عن حياة الشاعر وجهاده ، من أنه كان واحدا من أعلام النهضة الوطنية التي مهدت للثورة وأعدت لها عدتها، ثم أصبح بعد اندلاع هذه الثورة واحدا من جنودها العاملين في صفوفها، وكان

من جهاد الشاعر في هاتين المرحلتين أن كانت المضامين الغالبة على نتاجه هي : المضمون الإسلامي، الاتجاه الوطني (التحرري والثوري)، البعد الاجتماعي، الشعر الوجداني ، وهذه هي أهم اتجاهات الشعر العربي الحديث .

وتحسن الإشارة إلى أن صدر المقام لا يتسع إلى تناول جميع هذه المضامين بالدراسة ، بيد أن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه، ومن هذا المنطلق تود هذه الكلمة أن تقترب من المضمون الثوري في شعر الشاعر فيما يأتي .

رابعا - المضمون الثوري في شعره

يمكن القول أن الذي ينعم النظر في محتوى المضمون الثوري في نتاج الشاعر يدرك أنه يشتمل على جملة من القصائد تتصل جميعها زمانا وموضوعا بثورة نوفمبر المجيدة : تمجيدا ومباركة لها، حثا على الانضواء تحت لوائها ، مواكبة لوقائعها، تصويرا لبطولات أبطالها، ترحما على شهدائها، تنديدا بجرائم المحتلين ، تلويحا بألوية النصر ورايات التحرير .

وقد يكون الشاعر قد نظم قصائد أخرى في هذا المضمون ولكنها لم تصلنا وضاعت في جملة ما ضاع من نتاج الشاعر ونتاج غيره من الشعراء والكتاب الجزائريين أثناء الثورة وقبلها ، وعلى امتداد فترة الاحتلال الأجنبي ، وذلك بسبب السياسة الظالمة للمحتلين وبسبب قوانينهم الجائرة، وما تقوم عليه هذه وتلك من

ظلم واضطهاد وقمع وإرهاب وملاحقات ومتابعات ضد أفراد الشعب الجزائري .

بيد أن المحتلين لم يستطيعوا بمختلف جرائمهم تلك أن يفتوا من عضُد الشعب الجزائري أو ينالوا من قوة عزيمته أو يثنوه على مواصلة جهاده من أجل حريته وكرامته، فلم يلبث أن فجر ثورته الكبرى، فكانت الجذوة المقدسة التي قذفها الله في قلوب أبناء الجزائر رجالا ونساء ، وقوّى بنورها إرادة الجهاد في نفوسهم فمضوا يجودون بالمهج ويسخون بالدماء فداء لتحرير الوطن من نير الاحتلال.

وكانت كل روح من أرواح الشهداء الأبرار تسقط في ساحة الشرف ، وكل قطرة من دمهم تهرق على ثرى الوطن بمثابة مزنة غيث تنزل من السماء بإذن ربها فتسقي شجرة الحرية في أرض الجزائر ، وكانت هذه وتلك من نحو آخر، وفي الوقت نفسه، إعصارا يعصف بقلاع الظلم والظالمين .

ويتوجه الشاعر من هذه الروح التي بثتها ثورة نوفمبر المباركة في صدور الجزائريين بالخطاب إلى أبناء شعبه، في شخصية فتى منهم حاثا إياهم على المسارعة في تلبية نداء هذه الثورة ورفع رايتها وامتشاق السلاح على دربها وخوض غمار الحرب في ساحاتها حاملين على الأعداء حملة الأشاوس الأشداء ، مذيقين إياهم طعم الهزيمة وكأس الردى :

يا فتى الأوطان قم فارفع اليوم العلم
وتقدم للفدا باسلا راسي القدم
والق أبطال العدا ضاحكا على الشمم
واسقهم كأس الردى من يد تزجي العدم (5)

ويمضي الشاعر على هذا الطريق يمكن للثورة في نفوس أبناء شعبه، داعيا إياهم إلى المضي في جهادهم على جبهاتها بعزيمة قوية لا ترهبها الأهوال، وبإرادة راسخة لا تزعزعها العواصف ، مؤكدا في هذا السياق أن ثمرة كفاحهم مهما تكن الحال، إنما هي واحدة من اثنتين: النصر أو الشهادة ، وكلتا هاتين الثمرتين حلوة طيبة.

يخاطب الشاعر بهذه المعاني أحد فتيان الجزائر قائلا :

إنما أنت فتى للمعالي والهمم
وللكفاح الوطني الأعز المحتدم
لا يضرنك جهاد به خير للقيم
وحياة حرة لأسارى من قدم
أو ممات بعدها دار خلد ونعم
وسعادات سمت ورضاء مستتم (6)

وينتقل الشاعر من دعوته هذه لأخيه الفتى بالتجنيد في صفوف الثورة والجهاد على نهجها إلى دعوة أخته الفتاة بالدعوة نفسها، مؤكدا أن الواجب الوطني يفرض على كل فرد من أبناء

الجزائر: فتيانا وفتيات، القيام بفريضة الجهاد، دفاعا عن حرية وطنهم وعزته وأصالته:

حي بنت الكرام (ليلاي)واحمل لسناها مسرة الأوراد
واشد في فضلها كل جميل وتفنن في وصفها يا شادي
بنت عرب تجردت للمعالي وغدت للنساء خير عماد
أقسمت لن تعيش عيش ضياع في شقاء وسبة واضطهاد
ثم راحت تسعى بحزم وجد لبناء العلا ونيل المراد
جاهدي في تحرير شعب كريم مستكين يئن في الأصفاد (7)

ثم يتوجه الشاعر بهذه الرسالة النضالية إلى عموم أبناء الشعب الجزائري الذين يرابطون والذين يجب أن يرابطوا في جبهات الجهاد فوق كل شبر من تراب الوطن ، على ذرى الجبال ، وفي دروب التلال ، وفي شعاب الصحاري ، في المدن وفي القرى .. يكتبون هنالك بدمائهم الزكية مشاهد البطولة، ويصنعون بأرواحهم الطاهرة مفاخر الكرامة ، فداء لتحرير الوطن، وتطهيرا لأرضه الطيبة ، واستعادة لاستقلاله وسيادته.. يعبر الشاعر عن بعض هذه المعاني في واحدة من مطولاته، تنوعت فيها المشاهد وتلونت الصور وتعددت القوافي، فكانت من أروع أعماله : صدق مشاعر ، وسمو معان، وجمال تعبير، ورائع تصوير، وعذوبة إيقاع، وشرف مقصد :

ياحماة العرين والأشبال أنزلوا بالعدو كل وبال
وانزعوا من يديه حر ية الأوطان وائتوا لها بالاستقلال

وأعيدوا لذي الكبود الرطاب رحمات الصبا وأنس الشباب
وأعيدوا بالحسنى فراغ أهـا ل تركوهم في حالة الإرهاب
وامسحوا بالعلياء هذي الجراحا واحبسوا منها الدم الفواحا
وأقيموا للشعب في كل أرض مهرجانات العز والأفراحا
آن للشعب أن يكون عظيما ويوفى الحقوق والتكريما
ويرى أعلام الحمى خافقات ويلقى– ملء الحياة– نعيما[8]

يأبى الشاعر إلا أن يصدح بما يملأ صدره ويغمر قلبه من نبل العواطف التي تفيض بصادق حبه، وعظيم فخره، وإخلاص تقديره لأولئك المجاهدين الأبطال الذين يواجهون العدو في جبهات القتال ويكيلون له الصاع صاعين، ثأرا منه لما يقترفه من جرائم ضد الأهالي الآمنين، وفداء لعزة الشعب، وهؤلاء هم الذين سينجلي ليل الاحتلال بنور تضحياتهم، وستشرق شمس الحرية من زكي دمائهم ذات يوم آت قريب :

من مثلكم يا فتية المجد الذين سخوتم بالغاليات العظام
وفديتم الشعب المهان بقوة ورفعتموه إلى أعز مكان
وثأرتم لنسائه ورجاله من حاكم مستعمر ظلام
مرحى لكم وبشارة ميمونة بالنصر والنجح العظيم السامي
لولا جهادكم العظيم لدام في دركات الاستعباد ورهن ظلام [9]

وتمضي الثورة في طريقها ، ويمضي رجالها على نهجها يطاردون فلول جيش العدو حيثما وجدوا، ملحقين بهم أقسى الضربات

وأنكى الهزائم وأفدح الخسائر ، فيولي هؤلاء الأدبار على وجوههم إلى جحورهم ، فارين من مواجهة أبطال جيش التحرير الوطني ،إلا أنهم لم ينتفعوا بهذه الدروس،فسرعان ما يعودون إلى جرائمهم كعادتهم يثأرون من الأهالي العزل وينتقمون وينكلون، فتتعدد المجازر وتتعاظم التضحيات ويتساقط الشهداء الأبرار بالآلاف، بل بالملايين : نساء ورجالا ، شيبا وشبابا ... فيألم لهول ذلك قلب الشاعر فيمتلئ حزنا، ويضيق صدره فيفيض كمدا، فيبكي إخوانه أبناء شعبه ، فيصور بعض ذلك في جملة من قصائده، مترحما على أرواح شهداء الوطن، عموم شهدائه، وعلى امتداد أرضه. ويوقف اثنتين من قصائده على اثنين منهم ،هما :

1 – المجاهد القائد، البطل الشهيد عميروش قائد الولاية الثالثة رحمة الله عليه ، وقد جمعت بينه وبين الشاعر صلة جهاد ومودة أيام الكفاح السياسي في أوائل الخمسينات حيث كان الاثنان في فرنسا في إطار ما تقوم به جمعية العلماء من نشاط هنالك ، ثم ازدادت هذه الصلة بينها توطيدا وإحكاما أيام الثورة وعلى دروبها. يترحم الشاعر في قصيدته (حي في الأبطال ...)على جميع شهداء الوطن، ثم يخص القائد عميروش ببعض الأبيات يقول فيها :

حي في الأبطال فتيان الفداء واخصص (اعميروش) منهم بالثناء

بطل الثورة يبلي أبدا في جهاد المعتدي خير البلاء

ويرد الصاع صاعين له بقتال مستميت ودهاء
ويساقيه بأيد حرة كل جام مترع فيه الفناء
ويقود الجيش في سبل العلا من فخار لفخار وسناء
ذلك اعميروش فداء الحمى ومذل الغاصبين الأشقياء[10]

2 - الشهيد المربي عبد الملك فضلاء -رحمة الله عليه – الذي كان رفيق درب الشاعر في الإصلاح والوطنية، في التربية والتعليم في عهد النهضة، عهد الجهاد الوطني من أجل الاستقلال الشخصي الذي هو المقدمة الأساسية للاستقلال السياسي ، فكان الشاعر وعبد الملك جنديين من جنود الحركة الوطنية الحضارية . يصور الشاعر هذه الصلة بينه وبين الشهيد بفيض من صدق العواطف ونبل المشاعر وخالص الدعاء بسحائب من الغفران ووابل من الرحمات ، يعبر الشاعر عن بعض هذه المعاني في قصيدته (إلى الله أخي) التي يترحم فيها على عموم شهداء الوطن ويعدد مناقبهم ويصور ما يلقون عند ربهم من جزيل الثواب وواسع المغفرة ، ثم يخص رفيق دربه الشهيد عبد الملك ببعض الأبيات، يقول فيها :

إلى الله أخي عبد الملك في الدم الحر شهيد المعترك
والتحق بالصحب من أهل الفدى والشهادات كريم المسلك
وعلى ثغرك تكبير السما ودعاء المستجير المنتهك
من هدي القرآن والعلم الذي قد لقيت فيه اليوم مصرعك
واسكن الجنات حيث المصطفى والكرام الغر أنضاء النسك [11]

وتتوالى السنون مليئة بالمظالم والتضحيات، ويزيد المحتلون من عمليات تضييقهم الخناق على الشعب الجزائري وعلى ثورته، وتزداد جرائمهم ضده : إرهابا وقمعا، تعذيبا وتشريدا، محتشدات ومعتقلات.. في محاولة منهم أن يخمدوا شعلة الثورة ويوقفوا زحفها، وعبثا ما هم يحاولون. يريدون أن يطفؤوا نور الله بمظالمهم وجرائمهم ، والله متم نوره ولو كره الغاصبون . لقد صبر الشعب الجزائري وصمد أمام كل ما زرعه المستدمرون في طريقه من مكائد، واقترفوه من جرائم ، فأحبط بذلك كل ما حاكه أولئك المعتدون ضده من مخططات وكل ما دبروه من مؤامرات، واستمر في طريقه يغذي ثورته بالدماء ويمدها بالأرواح، وتملأ صدره بانتصاره فيها ثقته بوعد الله لعباده المؤمنين بالنصر، وظل يهزج بهذا الإيمان، رافعا بذلك معنويات الشعب، وملوحا بتباشير الصبح، ويتوجه بهذه المعاني إلى أخيه المجاهد قائلا :

وكأني بالنصر قد جاء معقود اللوا في سلاحك الذواد

هاهنا وهناك أبراج نور وأفانين زينة ووداد

حيثما سرت مهرجان يحي وسرور يحي ويمن ينادي

ودعاء من كل روح وثغر للضحايا من أهل الاستشهاد

حول تذكارهم نحي جميعا علم النصر في سماء البلاد

ونعلي في روعة وجلال شعلة المجد من ضرام الجهاد

دمت للدين والعروبة ذخرا في حمى الله يا أعز مفادي[12]

وقد تحققت -بعون الله - أماني الشاعر الشهيد، فقطف الشعب المجاهد ثمار جهاده ، واستعاد حريته واستقلاله ، ّ **ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز** ّ[13]

خامسا - الخلاصة :

نخلص إلى القول أن النقاش تركز في هذه الدراسة على جانب المضمون في شعر الشاعر ، دون العناية بالناحية الفنية فيه ، ويرجع ذلك إلى أن المقام لا يتسع صدره إلى معالجة هذين الجانبين في وقت واحد، كما أن الغاية من هذا العمل كانت تستهدف معرفة إسهامات الشاعر المجاهد الشهيد في مجالات الحياة الوطنية، والوقوف على مدى قدرته على النهوض بالرسالة الواقعية النضالية والوفاء لها.

وتحسن الإشارة في هذا المجال إلى أن الشاعر استطاع أن يحقق ذاته في ميدان النهوض بقضايا الواقع الوطني من رؤية حديثة مندمجة فيما يضطرب به الحاضر من وقائع وأحداث. ومن بين ما ساعده على ذلك أن عملية التجديد في الشعر العربي الحديث كانت أمام الشعراء في جانب المضمون أيسر منها في صورة التعبير، وذلك ليسر عملية الاحتكاك والإفادة من التجارب الوافدة في الوجه الأول (الأحاسيس والأفكار) أكثر منها في الوجه الثاني (الصياغة والأسلوب) .

ومن منطلق هذه الحقيقة فإن ما يمكن قوله في الصنعة الفنية

للشاعر أنه كان في هذه الناحية كشعراء جيله في عصره ، يعنى بمعالجة قضايا الواقع بقيم فنية يغلب عليها اليسر والسهولة والوضوح ومن ثم كانت صنعته الفنية تقوم على صحة اللغة وسلامتها، وفصاحة اللفظة وبلاغتها، ومتانة العبارة وسهولتها، وقرب الصورة ووضوحها ، مركزا عنايته في هذه الصنعة على المزاوجة بين القيم التبليغية التوصيلية وبين القيم الفنية الجمالية، ويمكن أن تكون عنايته بالقيم الأولى أكثر من عنايته بالقيم الثانية ، وذلك مراعاة لمقومات الرسالة الواقعية النضالية، ولمقتضى الحال (الرسالة ، المرسل إليه ، الغاية المتوخاة ..)

ويعثر المرء في هذا المضمار على قول للدكتور محمد ناصر يتصل بجانب من صنعة الشاعر، يقول فيه: " **إن الشّاعر كان ينزع في فنّه منزع المهجريين وجماعة أبولو** ". [14] ومما يمكن قوله في هذا الصدد أن الشاعر قد يكون بحكم المعاصرة قد قرأ للمهجريين وغيرهم من شعراء العربية في العصر الحديث، وتأثر ببعضهم في الجانب الوجداني من شعره ، بيد أنه يستبعد أن يكون هذا التأثر قد تجاوز هذا الجانب الموضوعي الشعوري من نتاج الشاعر إلى درجة النسج على منوال أولئك الشعراء في عمله الفني وفي صنعته الأسلوبية : تعبيرا وتصويرا، وذلك لما بينه، وبين هؤلاء من وجوه الافتراق في مؤثرات البيئة، وملابسات المحيط، وظروف

المجتمع، ونوعية الثقافة، وطبيعة الأهداف المتوخاة.

ونخلص إلى القول بعد، أن المتلقي يمكنه - من خلال ما تقدم في هذا العمل من أضواء عن حياة الشاعر ، ومن نصوص شعره، وما جاء فيها من معان ومشاعر، وسمات وأساليب – يمكن لهذا المتلقي أن يلمس بعض الملامح من شخصية الشاعر وثقافته وجهاده، بصفته داعية مصلحا، ومعلما مربيا، وشاعرا وطنيا، قضى حياته مجاهدا من أجل قضية وطنه، فسقط شهيدا على أرضه، فداء لحريته واستقلاله .. ورحم الله جميع شهداء الجزائر من ثورة الأمير القائد إلى ثورة نوفمبر المجيدة .

الهوامش :

1 – 2 - 3 - 4 - (5 ، 6) 7، 8 ، 9 ، 10 ، 11 ، 12 ، - ديوانه ص:215 ، 34 ، 35 ، 34 ، (183)، 189، 201 ، 226 ، 187 ، 125، 222 .

13 - سورة الحج الآية : 40

14 - ينظر (الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية (رسالة دكتوراه - مخطوطة جامعة الجزائر 1983م الملحق ص: 09)